روح العصر في ضوء الشعر العربي الرومانسي

الأستاذ بلقاسم بلهوشات
معهد الآداب واللغة العربية
جامعة باتنة

نشأت الرومانسية العربية في إبداعات جبران خليل، وخليل مطران وجماعة المهجر، والديوان، وأبوللو.

وقد أسهم في ظهورها، ونشأتها عوامل عديدة على رأسها الاحتكاك بالثقافة الغربية، وآدابها، من خلال البعثات التعليمية، والترجمة والصحافة، بالإضافة إلى الوضع العربي الباعث على الخيبة والتكسر.

لقد وجد الشاعر العربي نفسه غريبا على عصره، وتراثه، كغربته عن الثقافة الأروبية، فحاول اللحاق بالعصر والاستفادة من التراث غير أن رياح العصر كانت أقوى منه، ذلك أن روح العصر كما تقول إليزابيت درو "ELISABETH DRO" تؤثر فينا لا شعوريا مهما نتشدق باستقلالنا، أو نحاول جاهدين أن نحقق ذلك الاستقلال، لأن لون الثقافة، ومبلغ وعينا، يدفعاننا دائما إلى اتخذ بعض المقاييس الفنية، وطرح بعضها..

وكل عصر ككل إنسان يحب أشياء ويكره أشياء"[1]. وقد كان الشيء المحبب لدى الجيل الرومانسي هو الكآبة والألم والتمرد والعذاب، الحياة عندهم نغمة للبؤس والشقاء والقسوة فهم يستعذبون الألم ويتغنون به، ويلازم ذواتهم التي يعتبرونها مصدر كل شيء، حتى المعرفة عندهم" صدور من الذات النشطة الفعالة نحو الموضوع.. الموضوع بغير الذات لاشيء ووجوده يتوقف على إدراكه، وكما أن الخروج من النفس لرؤية ما يقع في الخارج محال، كذلك فإن تصور وقوع أي شيد خارج عن خبرة الكائن ذي الإدراك الأشد محال"[2] وفي هذا ما قيدونا إلى فهم الأدب الرومانسي كما أراده فيكتور هيجو Victor Hygo باعتباره دعوة إلى آلهة الشعر التي تستولي علينا وتقدونا باكية على ما في الانسانية من بؤس منطلقة كأعصار من الشرر، وبما لها من آلاف العيون.. تأخذ بيد الحرية .. فتجعلها تنفذ في كل إنسان من جميع مسامه".[3] في هذه الدائرة كانت ترتع رؤية الشاعر العربي الحديث حيث وجد في الرومانسية التعبير الأمثل عن صراع الاسنان وهو محاط بقوى تفوق طاقته.

فالذات الرومانسية لصيقة بالحس المأساوي، تطغى عليها الفردية فتحول بينها وبين المجتمع، وهذا ما يولد العزلة والغربية والشعور بخيبة الأمال على الرغم من تعاطفها في أفكارها وخواطرها مع ضحايا المجتمع، فالذات عندهم "لا تعني الإنسحاب من التجربة الخارجية الى التجربة الداخلية وحدها. ولكنها تعني في أحيان كثيرة، وصف الانطباعات

---

1) اليزابيث درو، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة محمد إبراهيم الشوش، مطبعة غيناني الجديدة، بيروت، 1961، ص10.

2) نعيم اليافي، الشعر العربي الحديث، وزارة الثقافة دمشق، 1981، ص136.

3) محمد غنيمي هلال، الرومانتكية دار العودة بيروت، 1986، ص26.

والمشاهد التي تنعكس عما تراه في المجتمع"[4]، من هنا كان ارتباطهم بالمشاكل الاجتماعية وبكل ما يعج في مجتمعهم، فالمجتمع هو المسؤول بدرجة ما عن هذا الاتجاه، وهذا ما قصده أحمد هيكل عندما قال "وكانت الملكية الباغية والاستعمار الطاغي، والاقطاع المستغل، أهم أطراف هذا التآمر الذي وصل ذروته في عهد اسماعيل صدقي باشا سنة 1930...

وإلى هذا العامل يرد ما كان من ضيق طائفة الشباب الشاعر الحساس، بالحياة وتبرمه بالعيش، وشعوره بخيبة الأمل، فقد دفعته تلك الظروف إلى أن ينطوي ويهرب ويبحث عن العزاء في الحب حينا، وفي رحاب الطبيعة حينا آخر، كما اغرته بأن يتشبث بالأحلام، ويتعلق بالخيالات، ويهيم بالرؤى، ليلوذ بعالم أكثر شفافية وأعظم رحابة وأفسح صدرا[5] وإلى جانب هذه الدوافع كانت الثقافة الأروبية المترجمة تعكس أزمة الانسان الغربي الحديث مما زاد التأثر عمقا في الاحساس والرؤية والتعبير لقد كانت المأساوية في الآداب السابقة، حالات فردية قلما تعم المجتمع أما هذا العصر الذي يعج بالصراع والتناقض والقلق، والخوف من الحاضر والمستقبل، فقد أصبح يوحي للشعراء بمأساوية الحياة، فثمة "هوة سحيقة تفصل بين ما يحياه الناس في الواقع من تجارب التمزق، وبين ما يتراءى للفكر من تصورات شتى قضايا هذا الواقع، وهي المعضلة الأساسية التي تجثم دائما وراء جميع المشاكل في جميع الميادين"[6] لقد أصبح الإنسان العربي في حالة لا تسمع له بحق الاختيار، فهو من الشمال الافريقي إلى بلاد الرافدين يتجرع المأساة ويستعذبها، ويحاول من خلالها أن يكتشف الدلالات والعلاقات التي توحده وتحرره، وفي انتظار

---

4) محمد الأسعد، اشكاليات التجربة الشعرية، مجلة الفكر المعاصرة، بيروت، عدد شباط 1981، ص33.

5) أحمد هيكل، تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، مصر 1968، ص337.

6) صدقي اسماعيل، المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص261.

حريته وغده يبقى البكاء والانطواء والحسرة موضوعات تتجسد في الثورة والحب والغربة والموت والحياة، يقول أبو القاسم الشابي في مقدمة قصيدته "إلى الله" مشخصا جزءا من هذه المعاناة " تعرض لقلب الإنسان الذي لا تنتهي أطواره، ازمات نفسية ثائرة يعصف بها الألم والقنوط.. فيشعر المرء كأنما أنبت ما بينه وبين الكائنات من وشائج الرحم والقربى، فأصبح غريبا في هذه الدنيا الغريبة في نفسه[7] ولو اطلعنا على دواوين بعض شعراء هذه الفترة لوجدنا في عناوينها ما ينبئنا عن هذه الروح المعبرة عن العصر.

فلأحمد زكي أبي شادي "فوق العباب " و"الشعلة" ولعلي محمود طه "الملاح التائه" ولحسن كامل الصيرفي" الألحن الضائعة" ودموع وأزهار" ولابراهيم ناجي "وراع الغمام" ولمحمود أبي الوفاء "الأنفاس المحترقة " ولأبي شبكة "القيثارة" و "الألحان" و "أفاعي الفردوس" وعلى هذا النمط كانت معظم الدواوين فهي مناجاة للعواطف والنفوس المحترقة يقول على محمود طه في قصيدته "الله والشاعر"[8]

ما أنا بالرازي ولا الحاقـــــد لكنني الشاكي شقاء البشر

أفنيت عمري في الأسى الخالد فجئت أستوحيك لطف القدر

فالرومانسية العربية لا تقف عند حدود بكاء الذات وشكواها وسخطها لهدم التقاليد ولاعلاء متع الحب والجنس بل تتجاوزها الى الانقلاب على الواقع والثورة عليه، فاهتمامهم بالمشكلات الاجتماعية والعمل السياسي كما يقول محمود الربيعي "لم يكن مسألة ثانوية، كما أنه لم يكن مسألة صدفة، ولكن كان جزءا أساسيا من التجربة الشعورية لديهم تلك التجربة التي صنعت شعرهم وحددت خصائصه، والروح العامة التي

---

7) ديوان أبي القاسم الشابي، الأعمال الكاملة " ص239 " .

8) ديوان علي محمود طه، الملامح التائه، دار العودة، بيروت، 1972، ص90.

تسري فيه، فظهر هذا الشعر في صورة احتجاج عاطفي على فساد الحياة من حولهم، ودعوي ايجابية الى قيم اجتماعية وسياسية بديلة لقيم العصر الاجتماعية والسياسة وذلك في أشد الحالات دلالة على اعتزال الحياة[9]

مجال الأدب الرومانسي، وبخاصة الشعر، هو الذاتية في علاقتها بالفرد والمجتمع والوجود، وتتحدد هذه العلاقة بموضوعات رئيسية تستقطب اهتمام الشعراد ويكون لها أكبر الأثر في حياتهم وفي تشكيل تجاربهم الشعرية مع إعطائها أبعادا إنسانية وفنية، هذه الموضوعات هي الحب، والطبيعة، والغربة، والموت، وسنلقي الضوء على هذه الموضوعات بالقدر الذي يرصد ابعاد روح العصر في التجربة الرومانسية:

1) الحب:

ارتبط موضوع الحب بالآداب منذ نشأتها، وتعددت صوره وأشكاله وكانت أكبر قفزة حققها حينما اعتبره الرومانسيون فضيلة من الفضائل، خلافا للكلاسيكيين الذين اعتبروه هوى من الأهواء. ففي موضوع الحب "يجسد الشاعر هويته الذاتية في التنوع، ويجد الانفعال في الاتصلا، والمتعة في الألم، والموت في الحياة.. كما يجد.. جدلية الواقع الراهن المستحيّل.. وجدلية المستقبل الممكنة.. التي يقابل فيها الإنسان الزمان"[10] فهو من الوسائل الأنجع في تطهير النفوس وهدايتها الى أداء واجباتها.

ومن البديهي أن يكون للشعراء العرب قصص في الحب وتجارب عديدة، بيد أن هؤلاء الشعراء الرومانسيين اتسمت تجاربهم بالإخفاق والخيبة والحيرة، وتحولت كلها في النهاية الى صورة واحدة تختلف في شكلها وتتحدد في معناها، إنها كما يقول الشابي "عناق الذات والألم، وصلوات في هيكل الحب، وكما يقول أبو شبكة الموت في الحب على

---

9) محمود الربيعي، في نقد الشعر، دار المعارف، مصر، ط2، 1975، ص99.

10) ناجي نجيب، كتاب الاحزان، دار التنوير، بيروت، ط1، 1983، ص143.

هوى وتلاق وكما يقول إبراهيم ناجي عبادة وأسى وأطلال وذكرى محرقة، وحنين الى المرأة لا امرأة بعينها"[11]، وما يهمنا في هذه التجارب هو صور الإخفاق التي عبر عنها الشعراء الرومانسيون فحددت حقيقة مواقفهم من الحياة أو العصر.

لقد أحب خليل مطران (1872 ـ 1939)، وهو من رواد الرومانسية العربية، وأنشد في ديوانه قصائد العشق والهيام.

ورقص مع الكون الذي أشعره بالسعادة غير أن هذه الفرحة سرعان ما حام حولها حمام الموت، فاختطف المحبوبة، فتحول البلبل الصدوح الى بوم يبكي الطلول، وكذلك تحول الشعر إلى ثوب جنائزي، وأصيب الجسم بالنحول والضمور فتمنى الموت مع موت الحبيب.

من بالمنون لواله صـــب ذاكي الأضالع مغلق الجنب

ليت الرزيئة فيك أودت بي فنجوت من ألمي وكربـــي

وفي نفس الشراك كان أبو القاسم الشابي (1909 ـ 1936)، فقد تزوج وفقا لأعراف وتقاليد الأسر البسيطة، وأنجب أولادا، لكنه كان على علاقة عاطفية بفتاة أخرى فظل يتغنى بها، وينشد فيها القصيدة تلو القصيدة، و عندما إعتالها الموت ذوت محاجره وجفت شفاهه، وتحول سحر الحياة لديه إلى ضرب من الغمام و القتامة، يقول[12]:

بالمنايا تغتال أشهى أمانيـــا وتذوي محاجري وشفاهي

فإذا من أحب حفنة تـــــرب تافه من ترائب وجبـــاه

وإذا فتنة الحياة وسحر الكون ضرب من الغمام الزاهـي

أما أبو شبكة (1904 ـ 1948) فقد عاش في عذاب نفسي متواصل، يندب غلواءه ويسقي شعره بدم قلبه يقول:

---

11) ديوان خليل مطران، حكاية عاشقين، الجزء الأول، ص182.

12) ديوان أبي القاسم الشابي، الأعمال الشعرية، ص242.

إجرح القلب واسق شعرك منه فدم القلب خمرة الأقلام

مصدر الصدق في الشعور هو القلب وفي القلب مهبط الإلهام[13]

وقد رأى في لهيب الشمعة التي تقاسمه السهر لهيب الحب المشتعل في قلبه حزنا على حبيبته غلواء.

في دمعك الشاحب نور يذوب

ماذا تقولين به للقلوب؟

لم يغمر الشعلة هذا الشحوب

أينتهي الحب كما تنتهين

يا شمعتي يا مثل العاشقين

لذاته تأتي وتمضي سراع

ثم تلاشى نفس الشمعة

مثل تلاشي الروح في الميت[14]

وقد كانت تجربة إبراهيم ناجي (1898 ـ 1953) في الحب من أقوى التجارب، وأعمقها مأساوية، إنه ضاع في دهاليز الحب وهام في أحلام الوجد ينشد السعادة مع محبوبته التي لم تنصفه، ولم تعطه القدر الذي أعطاه إياها، يقول:

هل رأى الحب سكارى مثلنا كم بنينا من خيال حولنا

ومشينا في طريق مقمر تثب الفرحة فيه قبلنا

وتطلعنا إلى أنجمه فتهاوينا وأصبحن لنا

---

13) إلياس أبو شبكة، المجموعة الكاملة في الشعر، الجزء الأول، ص383.

14) المصدر السابق، ص41 ـ 42.

وضحكنا ضحك طفلين معا وعدونا فسبقنا ظلنا[15]

لقد تحول الحب في هذه الأبيات إلى الصورة المثلى التي يجب أن يكون عليها وهذا هو المطلب الأساسي عند الشعراء، أن يتحول الحب إلى "اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع"[16]، وهو اتحاد المحبوبة والحبيب، بيد أن هذه الصورة لم تتحق لإبراهيم ناجي، فغدت حياته سرابا، والكون في نظره أطلالا، يجب أن يبيد كل ما يذكره بهذه الحبيبة، حتى الرسائل يجب أن تحرق كي يحرق قلبه في ضرامها.

عادت إلي الذكريات بحشدها وزحامها
في ليلة ليلاء أر قني عصيب ظلامها
أشعلت فيها النار تر عى عزيز حطامها
تغتال قصة حبنا من بدئها لختامها
أحرقتها ورميت قلـ بي في صميم ضرامها
وبكى الرماد الأدمي على رماد غرامها[17]

فعلى هذه الصورة المأساوية كانت تجارب الحب في الشعر الرومانسي، وكانت أيضا إحدى العناصر الأساسية التي برزت من خلالها روح الحياة العربية في تلك الفترة.

2) الطبيعة

كانت الطبيعة ولا تزال منبعا من منابع الإلهام لدى الشعراء في كل العصور، وقد تأكدت مكانتها عند الرومانسيين، عندما لونوها بحالاتهم النفسية وأمزجتهم المتباينة

---

15) ديوان إبراهيم ناجي الأعمال الكاملة، "وراء الغمام" ص181 .

16) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق الطاهر أحمد مكي دار المعارف، القاهرة، ط3، 1985، ص21 .

17) ديوان إبراهيم ناجي، الاعمال الكاملة، "وراء الغمام" ص326 ـ 327.

فكانت مجالا للعزاء والسلوى من الصدمات والإحباطات التي يلاقونها في واقعهم الاجتماعي، إنهم يبثونها أحزانهم وكشواهم، وتبرمهم، ويشعرون نحوها بالانجذاب، ونشوة الإلهام يقول أحدهم مخاطبا إياها "أيتها العناصر الكونية يامن يصوتها القدسي وبين أحضانها أشعر بنشوة الإلهام، أتستطعين أن تهبيني.. في الغابة العذراء متعة، وفي الضفاف المنعزلة جذبة سحر، فهنا أنس حيث لا دخيل من الناس بجانب البحار العميقة، وموسيقى أمواجها، ليس حبي للإنسان قليلا، ولكن حبي للطبيعة أكثر"[18] من هنا كانت دعوتهم الى الطبيعة والفرار الى الريف والغاب حيث الوحدة، واجترار الذكريات، ومعانقة الاحلام.

إنني ذاهب إلى الغاب يا شعبي لأقضي الحياة وحدي ليأسي
إنني ذاهب إلى الغاب يا شعبي في صميم الغاب أدفن نفسي
ثم انساك ما استطعت فما أنت أهل لخمرتي ولكأسي[19]

فالشاعر يريد بهذا الفرار أن يحدث قطيعة مع المجتمع الذي لم يعد قادرا على حل مشاكله، وفي الوقت نفسه يحدث تواصلا مع أحلام طفولته.

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور بين جدول الماء النمير
أيام لم نعرف من الدنيا سوى مرح السرور[20]

فما رآه الرومنسيون في الطبيعة، هو الوجه الآخر الذي افتقدوه في حياتهم الخاصة

---

18) محمد عنيمي هلال، الرومانتيكية، ص 171.
19) ديوان أبي القاسم الشابي، الأعمال الشعرية، ص 249.
20) المصدر السابق ، ص 362 .

وفي الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، ومن هنا كان تصويرهم للمناظر الطبيعية التي تتفق، وحالاتهم النفسية، فهم يأخذون من الفصول الأربعة مثلا فصل الخريف الذي يشي بذبول الحياة وفصل الشتاء الذي يرمز الى الفناء والاندثار كما أنهم يتفننون في وصف الغروب الذي يوحي باقتراب النهاية، وكذلك الليل حيث السكون والخلوة واجترار الذكريات.

قال أحمد زكي أبو شادي، بعد أن رأى شفق الغروب باكيا، والأرض ملتاعة من الفراق وانهمرت نفسه الثكلى مع تباريح الحرمان:

هذا هو الشفق الباكي بحرقته ... وهذه السحب فيها الدمع نيران

بانت عن الشمس فارتاعت لفرقتها ... كما يراع لدفن الحسن هيمان[21]

الأرض تشجي التياعا للفراق ... وإن كان الصباح بوصل منه تزدان

فكيف لي وأنا المحروم من زمني ... وكل عمري تباريح وحدثان[22]

وتحاول فدوى طوفان أن تصغي الى سكون الليل، وقد خيم على تلك الرياض التي بدأ الخريف ينقض على أزهارها ويخنق ألحان طيورها.

واصغ معي في سكون الرياض ... وقد لفها غسق الغيهب

طيور توشوش جنح الدجى ... وتكشف عن همها المختبي

فهذا الخريف تدب خطاه ... ليعصف بالزهر المعجب

ويخنق الحان أشواقها ويلوي بترجيعها المطرب

وكيف تغني لزهري نوى ... بروض سليب الحلي مجدب[23]

---

21) هيمان : شديد الوجد، المحب.

22) ديوان أحمد زكي ابن شادي، الشفق الباكي، المطبعة السلفية مصر، 1929، ص642.

23) فدوى طوفان، الأعمال الكاملة، "وحدي مع الأيام" ص43.

والواقع أن الخريف هنا هو رمز إلى عمر الشاعرة الذي اقترب من نهايته تقول:

كلها تمثل في نفسي رمزا لانتهائي

رمز عمر يتهاوى غاربا نحو الفناء

فترة ثم تلف العمر أستار المغيب

قد شاب قلبي فنفسي عن السرور تعف

وأصبح الحزن حولي من كل جنب يحف

وسوف يذبل قلبي غدا ودمعي يجف[24]

فلم يكن الشاعر أسعد من غيره من الرومانسيين، فما نال من حياته إلا العذاب و الحرمان واليأس، لذلك فهو يطلب الموت لكي يستريح يقول:[25]

جلست على الصخر الوحيد وحيدا وأرسلت طرفي في الفضاء شريدا

وكفكفت دمعا لا يكفكف غربة وواسيت قلبا في الضلوع عميدا

أرى صفحة الأمال قد ذاق أفقها ولاح لي اليأس البعيد مديدا

لقد عشت في دنيا الخيال معذبا فياليت شعري هل أموت سعيدا

فما أخذه الرومانسيون من الطبيعة هو ما يناسب حالات الحزن والشقاء، والاحساس بمصير الانسان المتواري.

3) الغربة :

عالم الغربة من الموضوعات التي تغذي الشعر الرومانسي، وتؤكد طابعه المميز وتزيده عمقا وتأكيدا في المأساوية، من خلاله ندرك عمق الظروف؛ ودرجة الإحساس الشقي عند الشاعر؛ فهو البوابة إلى عالم المضطهدين؛ والمشردين والفقراء، ففي غليان

---

24) المصدر السابق ص 14 .

25) ديوان عبد المعطي الهمشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1974، ص176.

الذات الشاعرة وعذابها؛ وعزلتها؛ تكمن قضايا الواقع المحطم وأزماته؛ ومن خلال هذا الشعر ندرك حياة الطبقة العريضة؛ كما ندرك القيم الإنسانية المتكسرة على أرصفة الطرقات غذاء هذا الشعر هو التسلط و القمع؛ وصمت الحياة المتعفنة، وهذا ما يعني الوحدة و الضياع والضآلة والتعب الروحي والجسدي.

ومع الإيمان بأن أول غربة اغتربها الإنسان هي وجوده على هذه البسيطة فإن الشاعر ليتساءل دوما عن سر الجفاء الذي يلاقيه والبلاء المصاحب له. أكلاهما تكفير عن تفاحة ادم عليه السلام كما قال صالح الشربوني أم امتحان الله للإنسان؟

أتفاحة سر هذا الشقاء ومن أجلها كل هذا البلاء[26]

فالشاعر في أزمة، وعليه أن يجد طريقه ويكتشف السبيل الموصل إلى بر الأمان ذلك أن عمره "ابتعاد واغتراب متواصل، لكأنه مسافر ينأى دائما على الهضبة الاخيرة المطلة على وادي قريته حيث يستدير، يلتفت الى الوراء بحنين، ويتوقف قليلا ليشبع نظره في مسقط رأسه، قبل أن تحمله رياح السفر ويقلع مركبه إلي ما وراء الأفق[27] ولا تقتصر هذه النظرة على ارتباط الإنسان بمكان ما، بل تتجاوز ذلك إلى الافكار، والمعتقدات والثقافات التي يتزود بها الإنسان، أي كل ما يشبع الظمأ المعرفي، يقول عبد الوهاب البياتي "لم أتوقف عند كتاب معين أو نوع من الثقافة كان كل كتاب هو بعينه المدينة التي لا أقصدها، كانت هناك محطات صغيرة، اعتقدت أن وراءها بارقا من الأمل، ثم اكتشفتها سرابا لا يروى الظمأ، وهكذا كنت ولا أزال مسافرا بلا عودة تتجدد أفكاري على الدوام"[28]

---

26) ديوان صالح الشرنوبي، جمع وتقدم على أحمد باكثير، الدار المصرية للطباعة، ص26.

27) سمير الحاج شاهين، لحظة الأبدية، ص 234 ـ 235 .

28) ديوان عبد الوهاب البياتي، المجلد الأول، دار العودة ، بيروت 1972 ص13.

لقد أصبح الشعور بالغربة، وبالتالي الإنفصال عن الله، والطبيعة والمجتمع حادا، وولد عجزا في تحقيق الأمان والطمأنينة للذات العربية و الاخص الشعراء وهذا ما دعا بعض الباحثين الى إضافة مصطلح الاغتراب الى غيره من السمات التي تميز العصر الحاضر.[29]

وقد كان الشعر ولا يزال يصور الغربة بأبعادها الزمانية والمكانية فيه بحث مستمر عن أمان الانسان وفي شعرنا العربي كان شعراء المهجر أكثر اهتماما بالغربة، وتكاد تكون الخيط الشمولي الذي يسري في أشعارهم ويربط موضوعاتها فشاعر المهجر يبحث عن "أمنه الذاتي في الطبيعة، في الحب، في الاقبال على الحياة، في النكوص عنها، في البكاء على مأساته، في اكتشاف ذاته وطاقته النفسية، في الثورة على الاستعمار... في خدمة المجتمع والتعاون مع الناس.. في كل جوانب شعر المهجر كان الشاعر دائم البحث عن مرفأ أمين بعد أن انتزعته أمواج البحار من موطنه الصغير الذي كان يجد فيه نفسه ويجد فيه القيم المتوارثة"[30] ولا يعني هذا تفرد شعراء المهجر بهذه الخاصية ذلك أن التعبير عن التجربة مهما كانت طبيعتها يحتاج أولا الى إحساس الشاعر بالموقف وإلى امتلاك ناصية التعبير، فقد عبر الشرنوبي عن غربته الذاتية وحقق الكثير من خصاص التجربة الشعرية قال:

فوق هذى الربا تخذت مقامـــي ومعي حانتي وخمري وجامي
حانتي عالم الخواطر في نفسـ ـي ودنيا الأمـــال والآلام
خمرتي ما يراق من نوب وجـدا تي وكأسي مواكب الأيـــام
قذفتني الغيوم بالرغم منـــي في عباب من الحوادث طام

---

29) محمود رجب الاغتراب، منشاة المعارف، اسكندرية، 1978 الجزء الأول، ص8.
30) أنس داود، التجديد في أدب المهجر، دار الكتاب العربي، مصر، 1967، ص 184.

هو بحر الحياة.. سطح وأعمـــا ق وغرقى أمالهم في حطام[31]

وقد عاش الشاعر العربي خليل حاوي تجربة الغربة بعيدا عن وطنه وأهله واحبائه، وزاد هذه الغربة مرارة الداء الذي ألم به فتحولت حياته الى جدار ليلي مثقل بالجلاميد الثقال يقول:

وأنا في وحشة المنفى

مع الداء الذي ينثر لحمي

ومع الصمت وإيقاع السعال

أنفض النوم لعلي اتقى

الكابوس والجن التي تحمل جسمي

وإذا الليل على صدري جلاميد

جدار الليل في وجهي

وفي قلب دخان واشتعال

آه ربي صوتهم يصرخ في قبري

تعال!؟

كيف لا أنفض عن صدري الجلاميد

الجلاميد الثقال

كيف لا أصرع أوجاعي وموتي

كيف لا أضرع في ذلّ وصمت

ردني ربي إلى أرض

---

31) ديوان صالح الشرنوبي، ص22 .

أعدني للحياة[32]

بعد هذه المقدمة التي تفوح بالموت، وبالتجسيد الحي لمشاعر الغربة وكل ما يراود الشاعر في محنته، يحدد الأشياء التي يحن إليها، ويشتاق لرؤيتها في وطنه، يقول:

من لولاهم ما كان لي

بعث حنين وتمني

بي حنين موجع، نار تدوي

في جليد القبر، في العرق الموات

بي حنين لعبير الأرض

للعصفور عند الصبح، للنبع المغني

لشباب وصبايا[33]

ولم ينفرد الشاعر العربي بهذه المعاناة، فهناك الصوت النسائي الشاعري، الذي شارك الشاعر في التعبير بالغربة عن روح الحياة العربية.

كفدوى طوفان التي ضمخت شعرها بمعاني الوحدة والضياع، بعدما فقد منها رمز انتمائها ووجودها، إنه وطنها فلسطين الجريح النازف، فشعرها بحث مستمر عن الحياة الحقة وهروب الى عالم الخيال، عسى أن تجد معني لحيرتها وغربتها تقول مخاطبة ذاتها:

ألا كم تهيمين في عالم تناءى بعيدا بعيدا مداه

وفي عمق روحك شوق ملح جموح لظاه عنيف ظماه

تراك هنالك تستطلعين خفايا الوجود وكنه الإله[34]

---

32) ديوان خليل حاوي، الأعمال الكاملة، قصيدة حب وجلجلة، ص101 ـ 102 .

33) المصدر نفسه، ص103 .

34) ديوان فدوى طوقان ـ الأعمال الشعرية ـ وحدي مع الأيام ص 36 ـ 37.

فما يشعرها بالغربة ويجعلها تطرح هذا التساؤل، هو الشعور بظلم القضاء، و سفك الدماء، وصراع البشر اللاإنساني تقول:[35]

أأنكرت في الأرض هول الفناء وظلم القضاء وجور الليالي

تراك افتقدت جمال العدالة فيها فهمت بأفق الخيال

محيرة ولهاء تنشدين الـــ حقيقة في غامضات المجالي

أراعك فيها شفاء الحياة؟ أراعك فيها صراع البشر؟

أمن صرخات القلوب الدوامي تعض عليها نيوب القدر

تلوذين في لهف صارع بكون تسامي نقي الصور

وما زاد غربتها عمقا فقدها لوالدها، وأخيها حيث أورثاها اللوعة والأرق والوحدة تقول:

وفي ليل سهدي يحرك وجدي

أخ كان نبع حنان وحب

وكان الضياء لعيني وقلبي

وهبت رياح الردى العاتية

وأطفأت الشعـــ لة الغالية

وأصبحت وحدي ولا نور يهدي[36]

إن الشعراء أصبحوا في غربة نفسية حادة، تلقي بهم في متاهات لا يعرفون لها حدودا، فهم في حالة انفصام بين الواقع الذي يعيشون فيه، وبين تجسيد ذواتهم كما يريدون، وإن كانت فدوى طوقان تفسر هذا التناقض ببنيه الإنسان القائمة على الروح

---

35) ديوان فدوى طوقان، الأعمال الشعرية، وحدي مع الأيام، ص36.

36) ديوان فدوى طوقان، ص39 .

والجسد، فإن ظروف العالم العربي وأوضاعه الاستعمارية لها دخل كبير في بلورة هذه الصورة، فما فعله الاستعمار، وأذنا به فكيل، بأن يخلق عند كل شاعر إحساسا بالغربة، والاغتراب وإلا كيف تفسر فرار فدوى طوفان الى ينابيع الخيال السماوية مخلفة وراءها عالم المآسي الواقعية.

روحي يلوب بدار غربته عطشا الى ينبوعه السامي
فهناك أصداء يسلسلها صوت السماء بروحي الضامي
وهنا هنا في الأرض يهتف بي صوت يقيد خطو أقدامي
صوتان كم تلجلجت بينهما يتنازعان شراع أيامي
وأنا كيان تائه قلق يطوي الوجود حنانه الضامي[37]

ويقف الشاعر العراقي سعدي يوسف أمام نافذته يتأمل أوضاع العالم العربي من خلال واقع بغداد في ظل الحكم الملكي، فيستحيل عليه التفكير لهول ما يراه ويحسه، ذلك أن الحزن يلف العراق مع السحب الداكنة التي تعج في فضائه.

إني أحدق عبر نافذتي وحيدا
ماكنت أقدر أن أفكر
إنني أرنو بعيدا
السحب السود
السحب تدخل عبر نافذتي كأني في الفراء.
السحب تدخل في فؤادي
والحزن

37) المصدر السابق، ص40.

إن الحزن ماء...[38]

فتجارب الغربة تستأصل الإنسان من كل ما يربطه بالحياة والمجتمع وتحرك في نفسه أنغام الحزن والشقاوة والعدمية، ولكنها تتحول في الأعمال الشعرية إلى صرخة في وجه الحياة البائسة، فمع بكائها على الحياة والخطر الذي يتربص بها، توقظ في الإنسان أيضا رغبة في تجاوز الظروف ومواجهة المصير.

4) المـــــوت:

تثير فكرة الموت من حيث هي قضاء على الفعل الإنساني تساؤلات عديدة في ميادين البحث، وقد كانت من أولى الموضوعات في ميادين الفلسفة باعتبارها بحثا في مصير البشر، في حين وجد فيها الشعراء ميدانا ثريا للتجربة الشعرية فعبروا عنها في صور وأساليب عديدة، من ذلك قول أبي العلاء المعري مجسدا أياها في صورة الزمن الذي لا يرحم ولا يلين:

أرى الوقت يفنى أنفسا بفنائـــه ... ويمحو فما يبقى الحديث ولا الرسم

لقد جد أهل المعلبين أثلـــــوا ... بناء ولم يثبت لرافعه رســـــم[39]

وكون الفتى في الرهط نبل عزة ... على أن داء الدهر ليس له حســـم

ويرزأ جسم المرء حتـى إذا أوى ... إلى العنصر الترابي لم يرزأ الجسم[40]

وقد كانت موضوعات الحب، والطبيعة، والغربة بمثابة الطريق المؤدية إلى موضوع الموت عند الشعراء الرومانسيين، فهي مطلب خلاصهم وسبيل تحرير ذواتهم من آلامها

---

38) سعدى يوسف، الاعمال الشعرية، النجم والرماد، دار الفارابي بيروت 1989، ط3 ص432.

39) أثلوا: أشادوا واحتلوا.

40) أبو العلاء المعري، اللزوميات، تحقيق عزيز أفندي، طبع المحروسة 1892، ص201.

وتباريحها يقول عبد الرحمن شكري داعيا الموت، ومبرزا حنينه إليه كحنين الفطيم إلى أمه.

فيا موت يا أما أطالب تصاممـــا أمالك قلب يرأم الولـــد حانيـــا

زلا أرضعيه منك يـــــا أم درة لأذكر ما قد كنت في العيش ناسيا

فيا موت أقبل باسط الوجه طلقه فإن حميم الصحب من كنت لاقيـا[41]

ولم يكن هذا الإحساس أقل بروزا في ديوان علي محمود طه"الملاح التائه" فالحياة صحراء قاحلة لاماء ولازرع، يهيم فيها الشاعر شارد الذهن محطم الوجدان، لامرشد له غير أشجار العذاب، وهجير الأرض والهواء يقول:

صحراء الحياة كم همت فيها شارد الفكر تائه الخطوات

سرت فيها وقد حطم المـقدا رفى جنح ليلها مشكاتـي

لكم أرمد الهجير جفونـــي ورمتني الحرور باللفحـات

أسفا للحياة أصلى لظاهـــا وأراها وريفة العذبـــات[42]

فما أوقفه على هذه الصورة هو رؤيته الحياة بعين الموت، وكيف ساق بنى جنسه وأبادهم بمنجله الحاصد.

رأى بعينيه المصير الرهيـــب وكيف غال الناس مـــن قلبـــه

وكل يوم للمنايا عصيب يسوقهم الموت من حوله

وا أسفا للعالـم البائـــد ليس له مما يرى مهـــرب

على رنين المنجل الحاصد مضى يغني وهو لا يطرب[43]

---

41) ديوان عبد الرحمن شكري، "مجلد واحد" منشاة المعارف، اسكندرية ط1، 1960، ص532.

42) ديوان علي محمود طه، الملاح التائه، ص 118 ـ 119 .

43) المصدر السابق، ص 96 ـ 97 .

وقد تشكلت صورة الموت عند الشعراء الرومانسيين - بالإضافة إلى ظروفهم الخاصة - من علاقتهم بالواقع المجذب حضاريا، وبعلاقتهم بالثقافات الإنسانية المهتمة بهذه الناحية المأساوية من والحياة كالأساطير، والسير، فالشاعر في أزمته مع الموت لا يعبر عن تجربة فردية بقدر ما يرصد أبعادا كونية لتجربة إنسانية، فمظاهر التغير والاضمحلال في الطبيعة والمجتمع صور نراها عادية، لكن الشاعر يتحسس أبعادها ويرى فيها مصيره ومصير البشرية، إن شروق الشمس وغروبها كفيل بتلخيص حياة الإنسان التي هي ولادة، فشباب، فموت.

لقد وقفت فدوى طوفان أمام الروضة الغناء، فلم تر فيها إلا ما يذكرها بأطلال الحياة، وما ينذر بالخراب والإندثار، وجسدت هذا المعني كله في صورة البوم الذي عشعش فيها:

ماذا أرى؟ هذاك بوم غريب ... منطلق جهم المحيا، وقاح[44]

يحوم في الروضة حوما مريب ... غدوه متهم والرواح

يطل من عينيه قلب جديب ... لكنه أرعن، فيه جماح

اقتحم الباب اقتحام الغصوب ... وجاس في الروض طليق الجناح[45]

أما الشاعر صالح الشرنوبي فقد رأى نفسه طائرا حطم القيد ولم يزل أسير حياته فهو يطلب الموت بإعتباره الرجاء الوحيد الذي يخلصه من مأساته.

أنا أحيا كالطائر حطم القيد ... ولما يزل أسير الفضاء

أعشق الموت فكرة في خيالي ... أتحدى بها قضاء الفضاء

وأميت الحياة في قلبي الحي ... وأرثيه قبل حين الرثاء

---

44) قاح: من القيح وهو الصدد الذي يخرج من الجرح.

45) ديوان فدوى طوفان، الاعمال الكاملة، وحدي مع الأيام ص 141 .

أنا حي ولست أدري أحقـــا أنا حي أم لست من الأحياء[46]

وقد دفعه هذا الإحساس إلى التساؤل عن حقيقة ذاته، عن حقيقة الوجود، والعدم، فهو لم يجن إلا الحيرة والعماية، إذ المقادير لا تزال تستحث خطا حيث لا يدري.

من أنا؟ من أكون؟ ماكنـــت؟ مابدء وجودي؟ متى تكون النهاية؟

ما وراء الحياة؟ ما غاية الدهر؟ وما كان قبل بـــدء الروايـــة؟

.....

ثم مـــاذا؟ صمت وعي وعجـــز وظـــلام وحيـــرة وعمايـــة

وشكوك تعم أيام عمـــــري وترينـــي ظلالتـــي كهدايـــة

ومقادير تستحـــث خطانـــا وهي تجـري بنا إلى غير نهايـة

وتمر الحيـــاة بين ســـؤال وجواب يزيـد جهلـي غوايـــة[47]

فالشاعر إذ ينشد الموت يبدو أكثر الناس إحساسا بالألم والمعاناة فهو يصعد جراحه القلبية ويحولها إلى ينابيع للشعر، ومرتعا خصبا لمن أراد أن يهتدي بنكبات وتجارب الاخرين، يقول أبو شبكة بعدما ما أعياه الداء وأدرك نهايته وأمانيها الكاذبة.

دعيني أموت فإنـــي فتـــى تحملت فوق قوى الحامل

دعيني أموت فحظي التعيس هوى مع كوكبه الأفـــل

وما كنت أومله سابقـــــا خدعت به خدعة جاهـــل[48]

إن وقع الموت فاجعة كبرى، وعلى الشعراء أشد وأقوى، فهم يتغنون بها ويطلبونها وإذا شعروا باقترابها الحقيقي هربوا منها، وحاولوا تناسيها عن طريق الهروب إلى عالم

---

46) طلعت أبو العزم، الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني، الهيئة العامة للكتاب، فرع اسكندرية، 1981، ص 133.

47) المرجع نفسه، ص 168.

48) ديوان إلياس أبي شبكة، ص 114.

الطفولة أو الذكريات السعيدة، فكلاهما مخدر ينتشلهم من واقع المأساوية، فمحمد عبد المعطي الهمشري عندما أحس باقتراب الموت لجأ إلى قريته يسترجع طفولته وذكرياته السعيدة عله يجد فيها بعض الراحة والهدوء يقول:

فيا أرض أحلامي أألقي طفولتي ... ويسعدني من العمر يوم آخـــــر

تعسفت فيك الليل والريح صرصر ... وخضت إليك الموج والنهر ثائـــر

أتيت لألقى في ظـــلالك راحـــة ... فيهدأ قلبي وهو لهفـــان حائـــر

أموت قرير العين فيك منعمـــــا ... يخدرني نفح من المـــوج ساطـــر

ويلحفني هذا البنفسج ولتكـــن ... مسارح عيني الربا والمحاضـــر

وآخر ما أصغى إليه من الصدى ... خريرك يفني وهو في الموت سائر[49]

فمع تلاشي صوت الماء، تعم المأساة كل شيء ويعتلي ثعلب الموت ربوة الحياةيقتص من العذارى والأطفال، ويغدر بالمحبين و أصحاب التيجان، ويطارد حتى الاشباح كما يقول عبد الوهاب البياتي.

الثعلب العجوز

الملتحي بالورق الأصفر والرموز

المرتدي عباءة الليل، وفوق رأسه طاقية الإخفاء

يقتص كل ليلة عذراء

يفترس النعاج والأطفال

يرضع ثدي هذه الشمطاء

يغدر بالعشاق

---

49) ديوان عبد المعطي الهمشري، ص 192 ـ 193 .

يضحك مزهوا من الأعماق

يرفس في حافره السماء

يلعب بالتيجان

نردا مع الشيطان

يأخذ شكل هرة سوداء

تمؤ في الظلماء

يطارد الفراخ والأشباح

يمارس السحر بلا شعوذة

ويضرب الضحية العمياء[50]

فالموت قد أوقف الشاعر الحديث الرومانسي على حقيقته، ودفعه إلى تخطي أقداره ومحاولة صنع مصيرة، حتى وإن اعتمد في ذلك على الاساطير وبالاخص أساطير البعث والنماء. فأسطورة تموز[51] التي استخدمت بشكل واسع في هذا الشعر، تطرح تجدد الحياة وأمل الإنسان في البقاء بعدما يئس من الحياة المتصدعة. يقول خليل حاوي في قصيدة"عصر الجليد".[52]

يا إله الخصب، يا بعلا لا يفض

التربة العاقرة

....

ياإلها ينفض القبر

---

(50) ديوان عبد الوهاب البياتي، المجلد الثاني، قصيدة "الموت"، ص 247.

51) تموز: إله الخصب والنماء عند البابليين وحبيب عشتار.

52) خليل حاوي، الأعمال الكاملة، قصيدة "عصر الجليد" ص89_90.

ويا فصحا مجيد

أنت يا تموز يا شمس الحصيد

نجنانج عروق الأرض

من عقم دهاها ودهانا

أدفىء الموتى الحزانى

والجلاميد العبيد

غير صحراء الجليد

أنت يا تموز يا شمس الحصيد

وانتظارا لهذا الفرج وذلك الخلاص تكون الاشعار الرومانسية قد وضحت موقف هؤلاء الشعراء من الحياة ونسجت أخر خيط في حلتها السواء، إن الشاعر وإذا اتحد بجيله يواجه مصيره في وضع قاتم، لا حبيب يواسه ولا فكر ينير طريقه ولا صحة تعينه على مواجهة الصعاب، ذلكم هو روح العصر في ضوء الشعر الرومانسي.

المصادر والمراجع:

أ ـ الدواوين:

- ديوان إبراهيم ناجي، دار العودة بيروت 1973.
- ديوان أبي العلاء المعري، اللزوميات، تحقيق عبد العزيز الخانجي القاهرة.
- ديوان أبي القاسم الشابي، دار العودة بيروت 1972.
- ديوان أحمد زكي أبي شادي ـ الشفق الباكي ـ المطبعة السلفية مصر 1926.
- ديوان عبد المعطي الهمشري ـ الهيئة العامة، مصر 1974.
- ديوان الياس أبي شبكة المجموعة الكاملة في الشعر، دار الرواد بيروت ط1، 1985.
- ديوان خليل حاوي ، دار العودة بيروت ط2، 1972.
- ديوان خليل مطران، مطبعة المعارف، الفجالة، مصر.
- ديوان سعدي يوسف الأعمال الشعرية، دار الفارابي بيروت 1979.
- ديوان الشرنوبي ـ الدار المصرية للطباعة.
- ديوان عبد الرحمن شكري منشأة المعارف الاسكندرية، ط1 ـ 1961.
- ديوان عبد الوهاب البياتي ـ دار العودة بيروت 1972.
- ديوان علي محمود طه ـ الملاح التائه ـ دار العودة بيروت 1972.
- ديوان فدوى طوفان ـ دار العودة بيروت 1984.

ب ـ مراجع عامة:

- ابن حزم طوق الحمامة ـ تحقيق أحمد طاهر مكي ـ دار العودة بيروت ط4 ـ 1975.
- أحمد هيكل تطور الأدب الحديث في مصر ـ دار المعارف 1968.

- اليزبيت درو - الشعر كيف نفهمه ونتذوقه - ترجمة إبراهيم الشوش - مطبعة عناني بيروت 1961.
- أنس داود - التجديد في أدب المهجر دار الكتاب العربي مصر 1967.
- طلعت أبو العزم الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني ، الهيئة العامة 1981.
- محمد غنيمي هلال - الرومانتيكية دار العودة بيروت ،1986.
- محمود الربعي في نقد الشعر دار المعارف - مصر ط 2 1975.
- محمود رجب - الإغتراب منشأة المعارف اسكندرية 1978.
- سمير الحاج شاملين لحظة الأبدية، المؤسسة العربية بيروت ط1 - 1980 .
- صدقي اسماعيل - المؤلفات الكاملة - المجلد الأول، وزارة الثقافة، دمشق 1977.
- ناجي نجيب - كتاب الاخوان ، دار التنوير بيروت ط1 - 1983.
- نعيم اليافي - الشعر العربي الحديث وزارة الثقافة دمشق، 1981.
- نفيسة داخلي عبد الرزاق، الحزن في الشعر السوداني المعاصر، رسالة مخطوطة جامعة الاسكندرية، مصر.
مجلة الفكر المعاصر عدد10 شباط 1981.